الْحَجُّ: مَقَاصِدُ وَمَوَاعِظُ

إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧٠-٧١].

فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحَجَّ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ لِمَقَاصِدَ عَظِيمَةٍ وَغَايَاتٍ نَبِيلَةٍ وَأَهْدَافٍ سَامِيَةٍ، أَعْظَمُهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ: إِقَامَةُ تَوْحِيدِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَتَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إِذْ يَخْلَعُ الْعَبْدُ عَنْ نَفْسِهِ عَلَائِقَ الدُّنْيَا، وَيَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ مُجَرَّدًا مِنْ زَخَارِفِهَا، مُقْبِلًا عَلَيْهِ بِقَلْبٍ خَاشِعٍ، وَنَفْسٍ مُنْكَسِرَةٍ مُنِيبَةٍ، {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [الحج: ٢٧]، ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج: ٣٠].

وَمِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِ الْحَجِّ أَيْضًا: تَأْلِيفُ الْقُلُوبِ وَجَمْعُ الْكَلِمَةِ، فَالْحَجُّ مَيْدَانُ اجْتِمَاعٍ وَمَوْسِمُ أُلْفَةٍ لَا مَوْطِنُ نِزَاعٍ وَخُصُومَةٍ، فَمَا فَقِهَ الْحَجَّ مَنْ أَسَاءَ إِلَى الْحُجَّاجِ أَوْ قَابَلَهُمْ بِالدَّفْعِ وَالْغِلْظَةِ وَالسِّبَابِ، فَإِنَّمَا يُنَاقِضُ بِذَلِكَ رُوحَ النُّسُكِ وَحَقِيقَتَهُ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [البقرة: ١٩٧].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَمِنْ مَقَاصِدِ الْحَجِّ النَّبِيلَةِ أَيْضًا: إِذَابَةُ الْفَوَارِقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا دَعْوَةَ فِيهِ إِلَى قَوْمِيَّةٍ أَوْ عَصَبِيَّةٍ، وَلَا إِلَى جِنْسٍ أَوْ وَطَنِيَّةٍ، بَلْ تَذُوبُ فِيهِ كُلُّ هَذِهِ الْفَوَارِقِ الْمَصْطَنَعَةِ تَحْتَ رَايَةِ الْعُبُودِيَّةِ، فَتَتَقَارَبُ الْأَبْدَانُ وَتَتَأَلَّفُ الْأَرْوَاحُ، وَيَجْتَمِعُ الْمُخْتَلِفُونَ مِنْ شَتَّى الْبِلَادِ وَالْأَجْنَاسِ، يَجْتَمِعُونَ عَلَى صَعِيدٍ

وَاحِدٍ، بِلِبَاسٍ وَاحِدٍ، وَنِدَاءٍ وَاحِدٍ، فَفِي الْحَجِّ يَتَحَقَّقُ مَعْنَى الْأُخُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الدَّعْوَى.

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِأَعْجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»، ثُمَّ قَالَ: «أَبَلَّغْتُ؟» [أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ].

فَكَيْفَ يَدَّعِي رَجُلٌ صِلَتَهُ بِإِخْوَانِهِ وَهُوَ يَطُوفُ بَيْنَهُمْ بِقَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ وَنَفْسٍ مُتَرَفِّعَةٍ، يَأْنَفُ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَيَنْأَى عَنِ الْفُقَرَاءِ؟! وَفِي تَشْرِيعِ اجْتِمَاعِ جَمِيعِ الْحُجَّاجِ عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ لِأَدَاءِ هَذَا الرُّكْنِ الْعَظِيمِ فِيهِ تَأْكِيدٌ لِمَقْصِدٍ عَظِيمٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَجِّ، وَهُوَ كَسْرُ حُظُوظِ النَّفْسِ، وَإِقَامَةُ مِيزَانِ الْعَدْلِ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَإِذَابَةُ الْفَوَارِقِ الْمَصْطَنَعَةِ، وَالتَّذْكِيرُ بِآثَارِ الِاجْتِمَاعِ وَالْأُلْفَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

أَيُّهَا الْمُبَارَكُونَ، إِنَّ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَجِّ أَيْضًا: الْتِقَاءَ ذِكْرَيَاتِ الْعَقِيدَةِ الْبَعِيدَةِ بِالْقَرِيبَةِ، وَاتِّصَالَ الْحَاضِرِ بِرَكَائِزِ الْحَنِيفِيَّةِ الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَاسْتِنْطَاقَ التَّارِيخِ الشَّاهِدِ عَلَى الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالطَّاعَةِ وَالْوَفَاءِ وَالْفِدَاءِ، فَهَذَا إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- يَتْرُكُ السَّيِّدَةَ هَاجَرَ وَوَلَدَهُ فِي وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَبِّهِ، وَتَسْأَلُهُ هَاجَرُ: آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَتَقُولُ فِي يَقِينٍ رَاسِخٍ: إِذًا لَنْ يُضَيِّعَنَا. فَكَانَ فِي قِصَّتِهِمَا أَسْمَى مَعَانِي التَّسْلِيمِ وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَكَمَالِ التَّآلُفِ عَلَى طَاعَتِهِ.

وَحِينَ يَسْتَحْضِرُ الْحَاجُّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ يُدْرِكُ أَنَّ الْحَجَّ لَيْسَ مُجَرَّدَ انْتِقَالٍ بِالْأَبْدَانِ وَذَهَابٍ وَإِيَابٍ، بَلِ ارْتِقَاءٌ فِي مُعَامَلَةِ الْخَالِقِ، وَانْضِبَاطٌ فِي السُّلُوكِ مَعَ الْخَلْقِ، وَتَرْبِيَةٌ عَلَى الطَّاعَةِ فِي كُلِّ شَأْنٍ، فِي بَيْتِهِ وَمَعَ أَهْلِهِ وَفِي تَعَامُلِهِ مَعَ النَّاسِ جَمِيعًا. فَكُلُّ مَا يُنَافِي الْمُرُوءَةَ أَوْ يُخِلُّ بِالْآدَابِ أَوْ يَقْدَحُ فِي رُوحِ الطَّاعَةِ وَالتَّرَاحُمِ فَهُوَ أَبْعَدُ مَا يَكُونُ عَنْ مَقَاصِدِ الْحَجِّ وَأَهْدَافِهِ وَفَضَائِلِهِ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، حِينَ يَسْعَى الْحَاجُّ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ يَسْتَشْعِرُ مَوْقِفَ أُمِّنَا هَاجَرَ، فَاسْتِذْكَارُ ذَلِكَ الْمَقَامِ يُحْيِي فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَانِيَ جَلِيلَةً مِنَ الثِّقَةِ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْأَمَلِ بِفَرَجِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى بَلَائِهِ. فَلَمَّا خَافَتْ عَلَى وَلَدِهَا الضَّيْعَةَ وَنَفِدَ زَادُهُمَا، قَامَتْ تَلْتَمِسُ الْغَوْثَ مِنْ رَبِّهَا، تَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ خَاضِعَةً خَائِفَةً مُضْطَرَّةً، تُظْهِرُ فَقْرَهَا إِلَى رَبِّهَا وَتُفَوِّضُ أَمْرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَمَا زَالَتْ كَذَلِكَ حَتَّى كَشَفَ اللَّهُ كُرْبَتَهَا، وَآنَسَ غُرْبَتَهَا، وَفَرَّجَ شِدَّتَهَا، وَأَنْبَعَ لَهَا زَمْزَمَ مَاءً مُبَارَكًا، طَعَامَ طُعْمٍ وَشِفَاءَ سُقْمٍ.

فَحَرِيٌّ بِالسَّاعِي أَنْ يَسْتَحْضِرَ وَهُوَ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ فَقْرَهُ إِلَى رَبِّهِ، وَذُلَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَحَاجَتَهُ إِلَى هِدَايَةِ قَلْبِهِ وَغُفْرَانِ ذَنْبِهِ، فَالسَّعْيُ تَذْكِيرٌ بِأَنَّ الْفَرَجَ يُولَدُ مِنْ رَحِمِ الِافْتِقَارِ، وَأَنَّ الْعَطَاءَ يُسْتَدَرُّ بِصِدْقِ اللُّجَأِ. فَهَلْ يَلِيقُ بِالْحَاجِّ أَنْ يَسْعَى بِقَدَمَيْهِ وَقَلْبُهُ لَاهٍ؟! أَوْ أَنْ يَمُرَّ بِالْمَشَاعِرِ وَرُوحُهُ غَافِلَةٌ؟! أَوْ أَنَّ يَنْتَقِلَ بَيْنَ تِلْكَ الْمَشَاعِرِ الْمُقَدَّسَةِ وَهُوَ مُنْشَغِلٌ بِهَاتِفِهِ مُشَاهَدَةً أَوْ تَصْوِيرًا أَوْ مُتَابَعَةً لِمَوَاقِعَ مُخْتَلِفَةٍ؟!

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَمِنْ مَقَاصِدِ الْحَجِّ الْعَظِيمَةِ أَيْضًا: الِانْقِيَادُ وَالْإِذْعَانُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَالْحَاجُّ وَهُوَ يَطُوفُ فِي تِلْكَ الْمَشَاعِرِ يَسْتَحْضِرُ مَوْقِفَ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حِينَ أُمِرَ بِذَبْحِ فِلْذَةِ كَبِدِهِ، فَمَا تَرَدَّدَ وَمَا تَوَانَى، أَذْعَنَ وَسَلَّمَ، وَإِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- الَّذِي قَابَلَ أَمْرَ رَبِّهِ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ وَفِي أَدَبٍ وَيَقِينٍ قَالَ: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات: ١٠٢]، فَكَانَ فِي هَذَا الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ دَرْسٌ خَالِدٌ فِي كَمَالِ الِاسْتِسْلَامِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحُسْنِ التَّلَقِّي لِأَوَامِرِهِ.

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ مَقَاصِدِ الْحَجِّ الْعَظِيمَةِ أَيْضًا: اسْتِشْعَارُ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لِبَنِي آدَمَ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر: ٦]. وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- مَوْقُوفًا، أَخْرَجَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ وَغَيْرُهُ: أَنَّهُ حِينَ هَمَّ الْخَلِيلُ -عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لَمَّا هَمَّ بِذَبْحِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَبِّهِ تَعَرَّضَ لَهُ الشَّيْطَانُ يَثْنِيهِ وَيُثَبِّطُهُ، فَمَا كَانَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- إِلَّا أَنْ رَمَاهُ، غَيْرَ آبِهٍ بِوَسْوَسَتِهِ وَلَا مُلْتَفِتٍ إِلَى تَثْبِيطِهِ، حَتَّى مَضَى فِي طَاعَةِ رَبِّهِ فَأَضْجَعَ ابْنَهُ عَلَى جَبِينِهِ الْأَيْسَرِ وَأَجْرَى السِّكِّينَ عَلَى عُنُقِهِ، فَجَاءَ الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: ١٠٤-١٠٥].

وَمِنْ هُنَا شُرِعَ رَمْيُ الْجِمَارِ إِحْيَاءً لِذَلِكَ الْمَوْقِفِ، وَإِعْلَانًا دَائِمًا لِعَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ، وَتَجْدِيدًا لِلْعَهْدِ عَلَى مُخَالَفَتِهِ، فَالشَّيْطَانُ يَغْتَاظُ حِينَ يَرَى الْمُؤْمِنِينَ يَرْجُمُونَ مَوَاضِعَ وَسْوَسَتِهِ وَيُجَدِّدُونَ الْبَرَاءَةَ مِنْ سَبِيلِهِ، فَالْعِبْرَةُ أَنْ تَرْمِيَ الْجِمَارَ بِقَلْبٍ يَعْزِمُ عَلَى مُجَاهَدَةِ الشَّيْطَانِ وَتَرْكِ وَشَاوِشِهِ وَقَطْعِ طُرُقِهِ، فَكَمْ مِنْ رَامٍ لِلْجِمَارِ لَمْ يَرْمِ شَهْوَتَهُ وَلَمْ يَدْفَعْ وَسْوَسَتَهُ! فَلْنَرْجُمِ الشَّيْطَانَ فِي قُلُوبِنَا قَبْلَ أَنْ نَرْجُمَهُ بِأَيْدِينَا.

أُمَّةَ الْإِسْلَامِ، حِينَ يَبِيتُ الْمَرْءُ لَيَالِيَ التَّشْرِيقِ فِي مِنًى، يَسْتَحْضِرُ مَوْقِفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَطُوفُ عَلَى الْقَبَائِلِ يَلْتَمِسُ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْأَجْسَادِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَهْطٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ دَعْوَتَهُ، فَاسْتَجَابُوا مِنْ فَوْرِهِمْ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، كَانُوا نَوَاةَ قِيَامِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ وَبَذْرَةَ انْتِشَارِهِ، لِنَعْلَمَ أَنَّ الْقُوَّةَ الْحَقَّةَ لَيْسَتْ فِي كَثْرَةِ الْعَدَدِ، بَلْ فِي اجْتِمَاعِ الْقُلُوبِ وَصَفَائِهَا وَوَحْدَتِهَا عَلَى مَنْهَجِهَا وَمَقَاصِدِهَا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢]. {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: ١٠٣].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. (أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

كلمة لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد محمدي بن محمد جميل النورستاني

-حفظه الله تعالى-

[يوم الجمعة ١٤٤٧/١٢/٥هـ]